دلالة التراكيب في بنية النصّ الصوفي
الإشارات الإلهية -للتوحيدي- نموذجًا

أ.عبد القادر بن عزة
جامعة تلمسان

لا يمكن الوقوف على كلّ خصائص الأبنية اللغويّة في كتاب –الإشارات الإلهية–لأبي حيّان التوحيدي (ت314هـ)، بل قصارى ما نودّ الوقوف عليه هو الإشارة إلى أهمّ مميّزات البينة النّحوية المتواترة في مدوّنة ذات منحى صوفي، القائمة على عناصر ثابتة (كالمناجاة)، حيث تكاد من خلال تكرارها وإلحاح المؤلف عليها تكوّن ميزة الكتاب، استناداً على معالجة البنية الداخلية للنصّ الإشارات الإلهية، واعتماداً على تناول الجملة التوحيدية في دلالتها وبنيتها.

من تلك الجملة الفعلية والاسمية البسيطة والطويلة، تطبيقاً لمبدأ الكثافة مع تحليل نموذجي لأزمنة الفعل وصولا إلى ذكر بعض الاستنتاجات.

دلالة التركيب في النص التوحيدي:

إن الاعتماد على مبدأ الكثافة "باعتباره يحدّد عدد العلاقات البنيوية الّتي يتطلبها تركيب الموضوع الأدبي، إذ يمكن حينئذ أن نجعل درجة الكثافة معيارا لاختيار المستويات والأشكال المتصلة بالخطاب وفاعليته اللّغوية"[1]، وقد تمّ الوقوف على مستويين في تركيبين يُمثل الأوّل دراسة الجملة الفعلية والإسمية، أما الثاني فيتناول أزمة الأفعال ليقودنا بالتالي إلى استخلاص درجة الكثافة وانعكاسها على المستوى التركيبي الداخلي للنصّ التوحيدي، وما تولّد عنه من استنتاجات لنسقية بنية النّص.

الجملة:

سيكون الوقوف على الجملة، لا بدافع الوصف فقط، إنّما السعي للنّظر فيما إذا كانت تحمل دلالة ومعاني في بنيتها.

الجملة الفعلية: تكون دراستها اعتماداً على مبدأ الكثافة[2]، بداية من أقصرها لتنتهي إلى أطولها.

القصيرة: المتصفح لمدونة "الإشارات الإلهية"، سيعثر على مجموعة من الجمل الفعلية القصيرة المعطوفة على بعضها البعض، وتتكون الواحدة منها من فعل وفاعل أو مضمر، نحو: تيَقَّن–تَوَكَّل–سَلِّم–أَخْبِر–أُشْكُر–أَخْلِص–أَجِب[3].

مشجر الجملة:

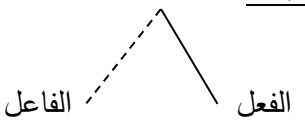

إنّ ما يميّز هذه الجملة الفعلية القصيرة، البسيطة في تركيبها كونها وردت في شكل أزواج (7 أزواج) عامل فيها التوحيدي الأفعال المتعدّية واللاّزمة معاملة واحدة، فلم يذكر المفعول به في إيراده للأفعال المتعدّية، وكأنّي به يترك للقارئ حيّزاً من الحريّة في البحث والتأويل (الهامش الصامت) [4].

وقد تميّزت كذلك لكونها وردت في شكل سلسلة من الأوامر، وكأنّها تستَفْرِغ شحنة من الغضب، والتوتّر في نفسية صاحبها، الذي يبدو وكأنّه عاجز عن فعل أي شيء فأمر الآخر (أنت) بأن يقوم بذلك بدلا عنه، فتصير الجملة التوحيدية معادلا طبيعيا لحركة مفقودة.

وقد ينزع التوحيدي أحياناً، وكأنّه استنفد نفسه في مخاطبة الآخر إلى الانطواء على النّفس، فيصبح هو الفاعل: "أشرتُ وكَنَيْتُ–حَاججت ولججتُ–بِعتُ واشْتَريتُ..."[5].

ولا شكّ أنّ ميل التوحيدي إلى تقابل الجمل الفعلية القصيرة، وكأنّها تمتصّ إحساسه بالاضطراب، وتغدو المعبّر عن تقلّب حاله، وتمزّقه بين الشيء ونقيضه.

إلى جانب هذا فقط اعتنى التوحيدي بالمتمّمات كـ"النعت" يقول: "أفدي هذه الفنون المستخرجة من هذا المصوغ..."[6].

وتتركّب الجملة حسب مشجّرها:

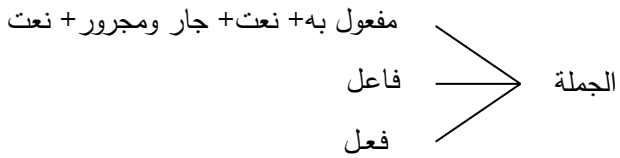

فعنصر الاستقطاب في الجملة: هو "النعت" الذي حاول الإفصاح على ما هو غامض في الجملة. حيث أصبح أداة تستقصي المعنى وتحلّله.

وفي مقام آخر، يشدّ اهتمام التوحيدي "الحال" ليعطي بعداً آخر لجملته، أكثر إيحاء لتوخّيه مبنى يكاد يكون كاللاّزمة تظهر وتختفي في المدوّنة: "جرّد عزيمتك في نظريّة ذهنك، وتطهير نفسك، وتقذية عينك، وتنقية قلبك، وتحلية روحك، وتوفية بعضك، وترقية كلّك..."[7].

وقد تكوّن شجرة الجملة من:

- فعل ← جرّد
- فاعل ← مضمر (أنت).
- مفعول به ← عزيمتك.
- أحوال ← في نظرية ذهنك **عطفت** عليه عدّة أحوال.

ولعلّ قيمة هذه الجملة تعبيريا تكمن في تفرّعها لاعن عنصر أصلي بل عن متمّم، بحيث يصير انتباه القارئ مسلطا على تتابع الأحوال التي توضّح كيفية تجريد العزيمة، فتغدو عامل إحلال للهدوء.

هندسة الجملة التوحيدية:

يميل التوحيدي أحيانا إلى صياغة الجملة في شكل هندسي طريف فهي مرات دائرية البناء، ينطلق فيها القارئ من نقطة ليعود إليها "أدرك الإشارة المدفونة في العبارة، والإيماء الذي في الإيحاء، والإيحاء الذي في الإنباء، والإنباء الذي في الإغراء، والإغراء الذي في الإسراء..."[8].

إن جمالية هذه الجملة مستمد من طريقة بنائها الذي انطلق من عنصر بسيط لينتهي إلى عناصر أخرى، لينصب اهتمام المتلقي على معاني الجزئيات المعطوفة بعضها على بعض (مفعول به معطوف على آخر...).

والرسم الهندسي للجملة يضعنا أمام تكوين مجموعتين:

المجموعة الأولى: الإشارة في العبارة.

المجموعة الثانية: الإيماء الذي في الإيحاء.

فتبدو عناصر الجملة الأولى وكأنّها مستقلة عن عناصر الجملة الثانية، فالأولى مركزها الإشارة: معنى باطني أداته عبارة (أي لفظ)، أمّا الثانية فمركزها الإيماء: إشارة محيطها (النظر–البصر–الذهن).

فتداخل دوائر الجملة التوحيدية، تصيّر فعل التلقي إلى عملية رياضية ذهنية، لا تكتمل عناصرها إلا بحصر المركز المكوّن لها، "ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير"[9].

فهذا التماثل عند التوحيدي، وكأنّه بناء يشبه الكون، قد رُكّب من دوائر ممتدة، يَحار أمامها الإنسان، إزاء مركز وحيد هو الله، تنبثق عنه جميع الدوائر.

فالمسحة الجمالية لتركيب الجملة التوحيدية واضح، قد يشير إلى دلالة نفسية، تبرز رغبة صاحبها في الانغلاق على الذات، وربّما تعذيب الآخر في نحت

الكلمة للوصول إلى هدف التطهير عبر هذه الجملة الدائرية.

فرغبة التوحيدي في تجنب الخطاب المباشر، لعلّه يعكس نظرية الفيض عند الصوفية من الناحية العقائدية والتي مفادها أن "وجود ما يوجد منه إنّما هو على جهة الفيض، فوجوده لوجود شيء آخر..."[10].

وليبرز التوحيدي قدرته على النعت والبناء والتركيب، لتغدو الجملة متنفسا لهمومه، وآلامه، ولتمتصّ شعوره بالقطيعة المادية التي يعيشها، فيحاول الفناء في جملته فناء لذيذاً عبر استخدام الجملة الانتشارية التي تنطلق من الجملة الفرد إلى مجموع جمل تنتشر في الفضاء لتؤلف جوا بديعاً قد يدخل السرور على نفسية المتلقي.

أتدري
- أي غاية صمدت بك.
- إلى أي فاقة أخذ بيدك.
- إلى أي سرّ أودع صدرك.
- أي كلمة أنطق لسانك.
- بأي ميل كحل طرفك(11).

فهذا النموذج ينطلق من المفرد ليصل إلى المركّب أي مجموعة من الجمل الأخرى (فعل+ فاعل يتفتحان على مجموعة من المفاعيل+ جمل متنوعة...).

أزمنة الأفعال ودلالتها:

رغم أنّ أزمنة الأفعال في تركيب الجملة، يمتد من الماضي مرورا بالحاضر ليتطلع إلى المستقبل، إلاّ أننا نشعر أن الأزمنة في الجملة التوحيدية ليست ثابتة، بل يتعمد تغيير مدلولها عن طريق تغيير سياقها.

فالزمن الماضي عند التوحيدي يشكّل خلفية نفسية، وإحساس عميق بالقطيعة مع محيطه، وكأنّه يقف على أطلال، ليتمتّع بذكراها محاولا التنفّس عبرها، تعويضا عن حالة الحرمان التي يعيشها، "سار والله الركب المخبون، وتركوك، ونجا والله المخفُون..."[12].

وقد يستعمل الماضي الدال على المستقبل، وقد وردت هذه الأفعال في شكل دعاء "أنار الله صدرك"[13].

والماضي الدال على الحاضر: "ههنا زلقت أقدام المتكلمين، وانتكست أعلام المتحذلقين، لأنّهم سعوا في آياته معاجزين..."[14].

أما المضارع، فهو الحاضر الأليم "انفُخُ في غير فحم، وأنادي من ليس بحاضر، وأنصح من ليس بقابل، وأجيب من ليس يَعقل"[15].

فأزمنة الأفعال في الجملة التوحيدية، تفضي إلى تبيين أنّه ممزّق في حقيقة الأمر بين زمنين:

- ماضي سعيد يتمنى عودته.
- مستقبل يرجو تحقيقه.

الأزمنة
- ماض ⇐ مفقود
- حاضر ⇐ مرفوض
- مستقبل ⇐ منشود

فتكون الحصيلة، أن التوحيدي لا يعيش في انسجام مع ظروف عصره (غربة واغتراب) لذلك فهو كثير الاحتجاج والرفض، فلا تربطه بالمجتمع، إلا إشارات يوجهها إلى النّاس ليرتدعوا، ويصلحوا أخطاءهم.

الجملة الاسمية:

تشترك الجملة الاسمية مع الجملة الفعلية، في بعض الخصائص، مثل البناء الدائري، التركيب الانتشاري، لذلك سنقتصر في دراستها على بعض وجوهها المميزة.

أ-البسيطة العادية: ونعني بها الجملة التي لم تخرج عن الاستعمال المألوف، مقارنة ببعض الأبنية التي أختص بها التوحيدي لنذكر نموذجا واحدا منها:

- الطمع خلق خبيث.
- القدر طالب حثيث.
- اللسان عدوّ ناصح.
- اللفيف صديق فاضح[16].

فالمبتدأ ورد لفظا واحدا، والخبر ورد تركيبا جزئيا، لكن اللافت للانتباه في طبيعة هذه الجمل الاسمية القصيرة، طابعها الحكمي الذي اصطبغ بشيء من الجمال الصوتي، لتناغم حروف الوقف.

ب-المركبة الانتشارية:

كلّ هذا
- من له الخلق والأمر.
- من له الحلّ والعقد.
- من له التصريف والترصيف.
- من له التكليف والتأليف.
- من له الأوّل والآخر.
- من له الإرادة والمشيئة.
- من له العالم بحركاته وسكناته[17].

إنّ هذين النموذجين يؤكدان رغبة التوحيدي في الحفاظ على التركيب النموذجي، أثير لديه (التفريغ والانتشار) إلى جانب ولوعه بتفريغ الجملة إلى سبعة عناصر سواء في الجملة الفعلية أو الجملة الاسمية بحيث لا يكون ذلك من باب الصدفة، إذ ما يكاد يختفي حتى يظهر مرّة أخرى، وقد يكون له دلالة تشير إلى:

1- قدسية رقم (7) في الحضارة الإسلامية- (7 سموات- 7 المثاني...).

2- أن يكون رمزاً سريا بين مجموعة من النّاس، دانوا بفكر واحد من أجل عمل سياسي أو ديني معيّن (إخوان الصفا).

فالتركيب في الجملة الاسمية عند التوحيدي يلعب دوراً استفزازيا يستنفر الإنسان لتنبيهه إلى مواطن الرذيلة ليتجنبها.

فصل المقال:

بعد توقّفنا عند الجملة التوحيدية بنوعيها (الفعلية والاسمية) يمكن أن نستخلص بعض النقاط في شذرات:

1- خلافا لما يذهب إليه بعض النقّاد[18] فإن الجملة التوحيدية في -الإشارات الإلهية- ليست قصيرة بل تنحو في أغلب الأحيان منحى الطول والتعقّد لتستغرق في بعض المواطن فقرة بأكملها.

2- قد تتشابه الجمل عند التوحيدي، لكنّها لا تتكرر، إنّما تكرارها يكمن في إصرار التوحيدي على أبنية تتحمّل دلالات وإشارات المنحنى الصوفي (مثل البناء الدائري والبناء الانتشاري).

3- نزعته نحو التركيب الغريب، عبر جهاد نفسه للبحث عن الجدّة والطرافة.

4- ميل الجملة التوحيدية إلى عملية التفريغ، لتكوين أداة للتنفيس فهي بحركتها، تضخ الحياة والجمال في مقابل القبح والمأساة التي يعيشها.

5- إنّ معاناة التوحيدي، دفعته إلى إيجاد غاية لإفراغ شحناته وربّما غضبه، فهو قد فشل في تحقيق الحظوة والمكانة، لدى رجال السياسة، وهو الفاقد للروابط الأسرية (لم يتزوج)، فكانت الجملة التوحيدية منطوقة لذاتها، غير مفصحة، فتدفع بالآخر المتلقي إلى التأمل والتمحيص، فتحاول إخراجه من سلبيته لإثبات الذات.

6- كما تتسم الجملة التوحيدية إلى جانب غموضها، بأنها تنطوي على أفعال تنبئ أزمنتها عن هوّة وأزمة حقيقية بين الكاتب ومحيطه.

الهوامش:

1)- انظر : د.صلاح فضل- أساليب الشعرية المعاصرة- دار قباء- القامرة- 1998- ص32.

2) - مبدأ الكثافة يعتمد على حصر عدد العلاقات البنيوية التي يتطلبها تركيب الموضوع الأدبي.

3) - أبو حيان التوحيدي- الإشارات الإلهية- تحقيق: د.وداد القاضي- دار الثقافة- بيروت- 1982- ص249.

4)- الهامش الصامت : تعبير استخدمه جرار جينيت.

5)- انظر : د.صلاح فضل- أساليب الشعرية المعاصرة- ص33.

6) - التوحيدي- الإشارات الإلهية- ص106.

7) - المصدر نفسه، ص114.

8) - نفسه، ص138.

9)- نفسه، ص61.

10)- سورة الملك، الآية 4.

11) - عبد الرحمن مرحبا- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة العربية-

مشورات عويدات-بيروت-1981-ص417.

12) - التوحيدي- الإشارات الإلهية- ص348.

13) - نفسه- ص42.

14) - نفسه- ص111.

15) - نفسه- ص139.

16) - نفسه- ص929.

17) - نفسه- ص290.

18)- د.محمد عبد الغاني الشيخ- أبو حيّان التوحيدي وأثره في اللّغة والأدب- الدار العربية للكتاب- ج2- تونس- 1988- ص333.